الفصل 5

العقل المحترم

لعبة الخرز الأصلية

منذ ما يعود إلى حوالي مئة ألف عام مضت، كان أسلاف الإنسان يزينون أنفسهم مسبقاً بخرز ملون. وفي رأي العلماء فإن أعضاء جماعة واحدة ذات مواصفات بشرية كانوا يعمدون إلى تمييز أنفسهم عن الجماعات الأخرى من خلال اتخاذ قرار واع بتجميل (بتخريز!) أنفسهم بأسلوب محدد[1]. ونحن لا نستطيع أن نعرف بالتأكيد ما إذا كان هذا التزيين يجري بصورة حصرية أو رئيسة بغرض تمييز جماعة ما. ولا ما إذا كان أجدادنا يتحاورون مسبقاً مع بعضهم بعضاً بنوع من اللغة أو بلغة بدائية، ولا كيف أنّ وضع مثل هذه العلامة كان له علاقة بأشكال بدائية أخرى للترميز، والتي تتراوح مابين الطقوس الجنائزية إلى رسوم الحيوانات على جدران الكهوف، ويبدو واضحاً بالفعل أن وضع العلامات التي تميز الجماعات عن بعضها هو صفة مميزة باقية ومهمة لأجناسنا البشرية.

لقد درس علماء الأجناس البشرية وعلماء الآثار وضع أعضاء الجماعات والميزات المشتركة من زوايا مختلفة، فالكثير من الأشياء التي تصنعها مهارة الإنسان ـ مثل الأقنعة، الأعمدة المنحوتة التي يتخذها الهنود رموزاً للأسرة أو القبيلة، الدروع ـ تكون مزينة بإشارات مميزة. وتكون نماذج

القرابة بين الأزواج متباعدة في النسب، حيث يختار الرجال زوجاتهم من القبائل المجاورة فيما يعد اختيار أسماء الذرية وأشكال السكن اهتمامات دائمة تترتب على ذلك؛ ويميز تبادل الهدايا بين الجماعات، المناسبات الاحتفالية. غير أن مثل هذه المظاهر التعريفية نادراً ما تقتصر على أوضاع سلمية أو احتفالية، فالجماعات القبلية غالباً ما تدخل في مناوشات حربية شعائرية تتلوها معارك مسلحة متى يتم ذبح عدد غير محدد من الأشخاص لدى أحد الأطراف أو الآخر. وقد توقفت المظاهر الشعائرية للنزاعات في العصور الأخيرة، وهذا ماتعنيه عبارات مخيفة مثل الحرب الكاملة، الحرب العالمية، النزاع العالمي أو التدمير المتبادل الحتمي.

ويظهر البشر ميلاً متأصلاً لتكوين مجموعات، ولتوفير علامات فارقة لهذه التجمعات، وتبني مواقف إيجابية تماماً أو عدائية تماماً تجاه المجموعات المجاورة والأبعد. فكر في فرق كرة القدم! فكر في المنافسة بين مزودي خدمة الإنترنت! فالعلاقات تتراوح ما بين صداقة تدوم طويلاً إلى منافسة دائمة، إلى عدائية قاتلة، وقد اعتبر عالم الأجناس البشرية كلود ليفي شتراوس أن تقسيم العلاقات الاجتماعية إلى قسمين هو من الخصائص الرئيسة للكائنات البشرية. وفي تفسيره المحكم للأمور فإن الحياة الاجتماعية تتألف من عمليات تبادل مابين مجموعات تراثية تتألف من ثلاثة كيانات: الكلمات، السلع، والنساء.

تفسيرات متنافسة للعلاقات مابين المجموعات

بإمكانك أنت أن تعرف مسبقاً الإطار التفسيري الذي تفضله عن طريق تفحص رد فعلك على حالة القضايا التي حددتها للتو. فمنذ خمسين عاماً، وعقب إطلاق النظريات العلمية الزائفة للنازية عن

الأعـراق، كان المراقبـون ينفرون من تبني تفسـيرات حول السـلوكيات البشـرية، تسـتند إلى علم الأحياء. وهكـذا فإن النزعة للمشـاركة في المجموعـات، وعليه لتنظيم حيـاة اجتماعية كان ينظـر إليها على أنها تراث ثقافي يمكن تغييره طوعاً. وفي هذه الأيام تميل دعاماتنا التفسيرية نحو علم الأحياء ويؤكد العلماء على حالات التشـابه الجزئي من خلال نظام الثدييات الرئيسـة (الإنسـان والقرد) وينقـب الباحثون عن أدلة تؤكـد أن أجزاء مـن الدماغ، أو حتى جينات معينـة، لها علاقة بمعرفة الفروق بين المجموعات ورسـم الخطوط الكبرى للعلاقات المتجانسة أو العدائية التي يمكن أن تسود بين المجموعات.

إن المدارك المأخوذة من علم الأحياء الاجتماعي وعلم النفس التطوري هـي مدارك حقيقية، ولا شـك بأن الكائنات الحية لديها ميول متأصـلة بعمق من أجل تحديد المجموعات والارتباط بأعضـاء جماعتها الخاصة والإعراب عـن تقديرها لهم، وتبني لهجة حذرة إن لم تكن عدائية تجاه جماعـات أخرى مماثلة مهمـا كانت هويتها أو تكوينهـا. ولكن مثل هذه التفسـيرات التـي يؤكد عليها علم الأحياء محدودة، فهي أولاً لا تحسـب حساباً لأبعاد، واتساع، أو مرونة مثل هذه المميزات الخاصة بالجماعات المتآلفـة فيما بينها والجماعـات المتباعدة. (فكـر في العلاقات المتغيرة مابين بريطانيا وفرنسـا على مدى عشـرات السـنين وعلى مدى قرون) ثانيـاً، وباعتبـار أن الكائنـات البشـرية تظهر كلاً من ميـول هجومية/ عدائية، وميـول غيرية وارتباطية، فإن أي موقـف باتجاه جماعة أخرى فعلياً يمكن تبريره بأسباب عقلانية وبمفعول رجعي. أخيراً، وحتى إذا كان بالإمكان إيجاد القواعد البيولوجية من أجل تقسيم المجموعات وصناعة

الأشـكال النمطية أو التعصـب، فإن الكائنات البشرية في كل جيل يجب أن تحـاول أن تتعاطـى مع هذه الميول ومتى كان ذلـك ممكناً، أن تكبتها أو تتغلـب عليهـا. (إن رد فعلك على عبارة «عالمـي» هو امتحان لأفكارك الخاصـة عن هذا الموضـوع لتقدير مدى تقبلك لـه). وفي الحقيقة فإن الاتجاهات السـلمية للسـنوات الأخيرة في مناطق مثل إيرلندا الشمالية وجنوب إفريقيا سـوف لن تكون قابلة للتفسـير لو أنه كان لا سـبيل فعلاً إلى تليـين علاقة كانت عدائية ذات مرة بـين الجماعات مثل الكاثوليك ضد البروتستانت، والملونين ضد البيض.

الحقبة الحاضرة حقبة مختلفة

مع ابتداع أعداد ضـخمة من الأسلحة الجماعية وعلى رأسها الأسلحة النووية، تكون العلاقة مابين الجماعات البشرية قد اتخذت قراراً خطيراً لا سـبيل للرجـوع عنه، وسـتكون له تأثـيرات في غاية الأهمية مسـتقبلاً. وفي الماضـي، عندما فشـلت التحفظـات الداخلية، التـي تنظم الحروب العشـائرية، في أن تكـون فاعلـة، كانـت أسـوأ حصـيلة لذلك هـي إبادة جماعيـة معاديـة. ورغم أن الكلمـة قد تكون جديدة، فـإن مفهوم الإبادة الجماعيـة قديم قـدم الإنجيل، وحديـث بحداثة الأحداث في السـودان، ورواندا، ويوغسـلافيا السـابقة. ولا تعرف الأعمال الحربية في هذه الأيام أي حدود. فخلال أقل من قرن كان لدينا نزاعان شـملا الكثير من أنحاء الكرة الأرضـية. ونحن نمتلك أسـلحة نووية، بيولوجيـة، وكيميائية والتي بإمكانها حالاً وبسـهولة أن تجتاز الحدود الإقليمية ـ وفي الحد الأقصـى ـــ أن تجعـل العالم غير قابـل للعيش فيـه. إنه لأمر ملحـوظ أن مثل هذه

الأسلحة قد استخدمت حتى الآن فقط ضمن أطر محدودة؛ ويتطلب الأمر تفاؤلاً لا تشوبه شائبة للاعتقاد بأن الحرائق الهائلة التي تهدد العالم سوف لن تنشب ضمن فترات حياة قراء هذه الجملة.

إن تجريم شن الحروب وتداول الأسلحة بحكم القانون هي فكرة نبيلة، ولكن لا يبدو أن هناك احتمالاً بأن تتحقق. فالجماعات لا تثق ببعضها حتى تعمل على تنفيذ مثل هذه التعهدات، وربما هي من الحكمة بحيث تكون حذرة من الأعداء الذين يحملون مذكرات تعهد كهذه. (عندما كنت شاباً دل اسم فريد ـ ميونيخ ـ على نزعة للشك في وعد قطعه قائد على نفسه بالمحافظة على السلام.) وربما يقوم التنافس من مختلف الأنماط ـ الممتد من التجاري إلى الرياضي ـ مقام الشكل البديل للقتال بالنسبة لبعض الأفراد وبعض الجماعات؛ غير أن الفكرة القائلة بأن الدول التي تتباهى بفرق كرة القدم أو بجائزة لمطاعم ماكدونالد سوف تحجم بناء على ذلك عن خوض الحروب، هي فكرة ساذجة. وحسبما أستطيع أن أرى فإنه بالنظر إلى النقص الحاصل في الجهود المبذولة للحفاظ على السلام، أو للاستئصال الواسع النطاق للنوى الموجودة في الدماغ أو للجينات التي تدعم السلوكيات العدائية، فإن السبيل الوحيد الممكن للتقدم يكمن في التعليم المفهوم بشكل واضح.

هدف منطقي: احترام الآخرين

ما الهدف المنطقي في عالم مكون من بضع مئات من الدول، الآلاف من الجماعات التي تتحدث آلاف اللغات، وأكثر من ستة بلايين من السكان؟ من الواضح أننا لا نستطيع بعد الآن وضع ستار أو بناء حائط يحجب

الجماعات عن بعضها إلى مالا نهاية. ولا بد لنا نحن الإنسان البيولوجي الحالي، وبطريقة ما، من أن نتعلم كيف نقيم في أماكن متجاورة ـ وفي الكوكب ذاته ـ دون أن يكره بعضنا بعضاً، ودون أن نشتهي إلحاق الأذى ببعضنا أو قتل بعضنا، ودون أن نتصرف وفقاً لنزعات الخوف من الأجانب والشعور بالكراهية إزاءهم حتى ولو خرجت جماعتنا منتصرة على المدى القريب. ويجري غالباً توسل التسامح المرتجى، وربما تكون الحجة، أنه كل شيء نستطيع أن نطمح إليه. ويفضل دهاة اللغة من ذوي الطبيعة الأكثر تفاؤلاً اعتماد اللغة الشاعرية؛ وكان الشاعر دبليو. إتش. أودن قد صرح عشية الحرب العالمية الثانية: «يجب علينا أن نحب بعضنا بعضاً أو نموت»[2].

إنني أفضل مفهوم الاحترام، وبدلاً من تجاهل الخلافات التي تتم تزكيتها من قبلها أو السعي لإلغائها من خلال المحبة أو الكراهية، فإنني أدعو الكائنات البشرية إلى أن تتقبل الفروق، وأن تتعلم أن تتعايش معها وأن تقدر أولئك الذين ينتمون إلى جماعات أخرى.

المعالم التطويرية

حتى في السنة التي يبدأ فيها العمر، يكون بإمكاننا تمييز قاعدة من أجل احترام الآخرين. فالأطفال الموجودون في دور الحضانة يرون أو يسمعون معاناة طفل آخر، وهم يدللون على وعيهم بواسطة النشيج أو لبكائهم أنفسهم. ويفسر علماء النفس هذه التصرفات على أنها إحساس أولي بالذات (بالمقارنة مع إحساس آخر) وباعتبارها نمواً لرد فعل متعاطف.ويصبح الأطفال الذين هم في بداية عهدهم بالمشي وقد كبروا

قليلاً، ميّالين للقيام بتصرفات نشطة عندما يوجهون اهتمامهم إلى معاناة الآخر، وهم سوف يهدئون من روع طفل في أول عهده بالمشي يبدو حزيناً ـ بإعطائه (إعطائها) لعبة ويطلبون منه الانضمام إليهم في اللعب.

وللأسف، فإن ردود الفعل الأقل وداعة هي أيضاً ملحوظة. فالأطفال في أول عهدهم بالمشي سوف ينتزعون الألعاب من بعضهم، وسوف يسخرون من بعضهم، ويتشاجرون مع بعضهم، ويمنعون الأفراد («أنت طفل») أو المجموعات («هذه الزاوية للأولاد فقط») من المشاركة في النشاطات ذات الأهمية. وهم في حالات غير طبيعية، سوف يذهبون أبعد من مجرد التركيز على الذات ويسعون بنشاط إلى إلحاق الأذى الجسدي بشخص آخر. كذلك فإن القدرة على تمييز الجماعات عن بعضها ظاهرة تماماً قبل بدء الدراسة الرسمية. ويستطيع الصغار في سن الثالثة أو الرابعة، أن يقوموا بالتمييز بشكل مترابط ومنطقي مابين الأفراد أو الجماعات لناحية لون الجلد، النوع الاجتماعي (الذكر والأنثى) اللغة، طراز الملابس، مكان الإقامة، وربما حتى نوعية العرق، والحقيقة فإنه حتى في الأشهر الأولى من العمر ينظر الأطفال بشكل تفضيلي إلى وجوه تنتمي إلى عرقهم هم، ولكن ليس بشكل توجيهي عندما يعيشون في ثقافة تبرز أعداداً كبيرة من الأشخاص الذين يختلفون في ألوان جلدهم[3].

إن تحري الفروقات هو المادة الأولية ـ جزء من المعرفة البشرية، مفيدة من عدة نواح ، ويستحيل كبحها في أية حالة. ولكن طريقة تصنيف هذه الفروقات وتفسيرها هي ظاهرة ثقافية. فالأطفال الصغار يربطون أسماءهم مع (ويرغبون في محاكاة) أشخاص ينظر إليهم على أنهم أضخم

حجماً/ أكبر سناً، أو أشد قوة. وتغدو كيفية ارتباط نماذج الأدوار هذه التي تلقى إعجاباً، بالعضوية في جماعات مختلفة أمراً بالغ الأهمية. وإذا ما اختلط البالغون من البيض والسود بسهولة وبصورة مريحة، فإن السمة البارزة لهذا التميز في اللون يتم تخفيفها. وإذا ما تحدث البالغون عدداً من اللغات وانتقلوا بسهولة من لهجة محلية إلى أخرى، فإن هذه الوسيلة في الاتصال تؤكد على الارتباطات ما بين الجماعات اللغوية. فعندما عادت ابنتي كيريث من روضة الأطفال سألت «هل السيدة تشيس سوداء؟» ومن الواضح أنها كانت قد سمعت هذه العبارة، غير أنها لم تكن متأكدة إلى ماذا كانت تشير، وعندما تزجر معلمة روضة الأطفال الذائعة الصيت ڤيڤيان بايلي الصغار الذين هم في عهدتها قائلة «لايمكنك أن تقول، لا يمكنك أن تلعب»، فإنها ترسي بذلك قاعدة سلوك توسع شعوراً بالانتماء، وتفرض عقوبة على أولئك الذين سوف يتسببون في إثارة الخلاف[4].

وبحلول سن الخامسة على أكثر تقدير، تكون حظوظ الصداقة أو العداء، احتواء الجماعات أو إبعادها، المحبة أو الكراهية، تكون قد حددت مسبقاً. ويدرك الشبان هويات الجماعات وصفاتها، وقد يكونون بدؤوا مسبقاً واعتماداً على مايلاحظونه، بتبني مواقف باتجاه الجماعات التي ينتمون إليها، والجماعات التي يشعرون أنهم مبعدون عنها أو الجماعات التي لا يرغبون في الانتماء إليها. وإنه لمن المهم بصورة هائلة بالنسبة لتطوير المواقف الاجتماعية ودرجة الارتياح، معرفة ما إذا كان شاب ما قد تربى في جنوب إفريقيا التي عرفت باعتماد سياسة التمييز العنصري في الخمسينيات، أم جنوب إفريقيا المندمجة الأعراق، والتي تنتمي إلى الحقبة الحاضرة.

وهناك مسألة مهمة تتعلق بما إذا كان الشباب يربطون ما بين الأهمية الأخلاقية وعضوية الجماعة، وبمعنى آخر هل الجماعة A مختلفة ببساطة عن الجماعة B، أو هل الجماعة A أفضل (أو أسوأ) من الجماعة B؟ وحتى الذين هم في سن الخامسة يمتلكون وعياً بالمجال الأخلاقي باعتباره مجالاً منفصلاً، فهم يستطيعون تمييز الممارسات الأخلاقية (من الخطأ تماماً أن تسرق أو أن تؤذي الآخر) عن ممارسات هي محض تقليدية (في بعض الدول، يقود الناس السيارة على الجانب الأيسر من الطريق). وهم ربما يتقاسمون أيضاً بعض الأمور البديهية الأخلاقية ـ مثلاً بأن الخيرات يجب أن توزع بالتساوي بين أعضاء جماعة ما. غير أنه لا يمكن التنبؤ بما إذا كان صغار السن سيقومون باستثمار الاختلافات بين الجماعات بذاتها عن طريق بذل مجهود أخلاقي (أولئك الذين لديهم لون بشرة أفضل من أولئك الذين لديهم لون بشرة مختلف). ولقد كانت إحدى العوامل التي تسببت في التأثير واستمالة المحكمة العليا في القضية الشهيرة التي سميت «براون ضد مجلس التعليم» لعام 1954. كانت إظهار علماء النفس أنهم بمنحهم الخيار، فإن الكثير من الأطفال السود فضلوا أن يلعبوا بدمى بيضاء. وقد أثبتت مواقف وممارسات المجتمع المحيط مدى خطورتها في اتخاذ ذلك القرار.

ويجب -بصورة مثالية- توزيع المسؤولية عن توليد الاحترام مابين الجماعات المختلفة وإظهار ذلك الاحترام علناً، عبر المجتمع. كما يجب على أولياء الأمور، الجوار، والقادة السياسيين، والزعماء الدينيين، ووسائل الإعلام الشعبية، وسلسلة منظمات المجتمع جميعها أن تبدي احتراماً كهذا أيضاً، يجب عليهم أن يكافئوا أولئك الذين يظهرون

الاحـترام، وأن يقومـوا بعـزل أو بالأحرى معاقبة أولئـك الذين يعجزون عـن إبداء الاحـترام، ـ بلغة الزمن الحاضـر أولئك الذين «يسـتخفون» بالآخرين. إلا أننا لا نستطيع الاعتماد على غلبة انتشار مثل هذه النماذج المثالية للأدوار. ومن المرجح أكثر أن الشـخص الذي ينمو يواجه سلسلة كاملة من النماذج، بعضـها مثيرة للإعجاب ربما، غير أن الكثير غيرها تكون مختلطة أو حتى عدائية تماماً، وإذا كنت تشـك في هذا القول فقم -فقط- بتقليب القنوات الفضائية في أقرب جهاز تلفاز أو بمسح محطات الإذاعة بواسطة إبرة المذياع.

غالباً ما ينشـأ انفصـال بـين التعبير العـام للتسـامح والدلائل الأكثر دقـة للتكبر والعجرفة والتعصـب أو التجاهل الصـريح. ولقـد أثبت عالم النفس بارو دانهام وزملاؤه أنه بحلول منتصـف عمر الطفولة ينكر صغار السـن أنهم متعصبون[5]. ومع ذلك وبوضـعهم داخل مثال تجريبي حيث تشـير فترات رد الفعل على المؤثرات إلى وجود مواقف متعصـبة ضـمنية، فإن هؤلاء الصـغار أنفسـهم يكشفون أنهم يفضـلون جماعتهم الخاصة، وجماعـات ذات مكانـة عالية، فيما هـم يزدرون أعضـاء جماعات أخرى ولاسـيما أولئـك الذيـن يمتلكـون هيبة أقـل. وبصـريح العبـارة يتجاوب الأشـخاص قيد البحث بصـورة أسـرع عندما يتم ربط أوصـاف إيجابية بجماعات يحترمونها، ويتم ربط أوصـاف سـلبية بجماعـات يحتقرونها. وقد تمت ملاحظة الانفصـال ذاته بين التسـامح العلني والتعصب الخفي بين الشـبان الأميركيين والشـبان اليابانيين. وبحلول الوقت الذي يصـبح فيه صـغار السـن مراهقين أو شـباناً بالغين، فإن موقفهـم تجاه الآخرين يكون ثابتاً تقريباً. وباسـتثناء توافر ظروف غير عادية للغاية فإنه من غير

المرجح أن يتغير موقف المرء تجاه جماعات أخرى بصورة جذرية. إنه ليس بالأمر السار أن نعرف عن الطبيعة الثابتة للتعصب وحالات التحيز؛ ومع ذلك ومالم ندرك نحن ونعترف بهذه النزعة المتفشية، فإنه من غير المحتمل أن نكون قادرين على التغلب عليها.

وسط محترم، ومايترتب عنه من أشكال خاطئة مختلفة

إن المهنة المنوطة بالمربين تغدو واضحة: إذا ما كنا سوف نقوم بتشكيل أشخاص يحترمون الفروق، فإننا نحتاج إلى تقديم نماذج وإعطاء دروس تشجع على مثل هذا الموقف المتعاطف. ويكون مثل هذا التشكيل مهماً بصورة خاصة عندما تبدو علاقات النفوذ بين الأفراد أو الجماعات غير متناسقة[6]. وتشكل الأمثلة التي يطرحها المدرسون نقطة انطلاق حاسمة، فالطلاب يلاحظون بدقة كيف يعامل المدرسون بعضهم بعضاً، وكيف يعاملون الأشخاص البالغين الآخرين، وكيف يعاملون الطلاب ـ لاسيما أولئك الذين ينتمون إلى جماعة لا تشكل أكثرية (مثال، أقلية دينية، أو جماعة من المهاجرين الذين وصلوا مؤخراً) ـ وتمارس المناهج الدراسية الأدبية، التصويرية، والتجريبية العملية التي يختارها المدرسون، والأسلوب الذي يتم بواسطته التعامل مع هذه المواد الدراسية، ولاسيما المواد التي لم يتم اختيارها أو جرى رفضها بصورة متسرعة، كل هذه الأمور تمارس تأثيراً هائلاً. فكر فقط في الاختلاف بين غرفة صف تضم أكثرية من البيض تقرأ وتناقش بانسجام كتباً من تأليف أشخاص من السود وتدور حول أشخاص من السود، وغرفة صف مماثلة حيث يتم ازدراء كتب لمؤلفين من السود أو لا تتم مصادفتها، ولم يقدم المؤلف الشهير سول بيللو أي عون

لقضية الاحترام المتعدد الثقافات عندما قال ساخراً: «من هو تولستوي قبائل التوتو، من هو زولا قبائل الزولو؟»

وبالتحول إلى التخصصات المحددة، فإنني لا أعتقد أنه يجب تصريف العلوم والرياضيات وتغيير شكلها كوسيلة لتبجيل الفروق الجماعية، وباعتبارها لغات عالمية، فإنه لا بد من أن يتم تفسيرها وتدريسها بصورة متشابهة حول العالم، وعندما يتعلق الأمر بالتاريخ، الفنون، والعلوم الإنسانية، فإنه لا بد على أي حال من اتخاذ خيارات واضحة. حيث إنه يتبين أن تاريخ دولة ما مختلف تماماً، قياساً على ما إذا كانت قد جرت كتابته بشكل رئيس، لناحية الاعتبارات السياسية، الاقتصادية، الاجتماعية أو الثقافية. فقد تهدف معالجة تاريخية للحرب الأهلية الأسبانية إلى إظهار موقف حيادي أو إظهار التعاطف مع قضية الموالاة أو قضية الفاشيست، وإنني أعتقد أن هذه المواضيع التي جرى تعريفها على يد البشر لا بد أن تدرس في ضوء سلسلة من وجهات النظر، وهذا لا يعني -مع ذلك- أن جميع الأطراف المتنازعة تستحق الاحترام. وربما كانت هناك أسباب منطقية للمواطنين الألمان لدعم النازيين في ألمانيا المنهارة نتيجة للركود الاقتصادي عام 1930؛ وليست هناك من أسباب منطقية للدفاع عن موقف النازيين المولع بالقتال بحلول نهاية عقد الثلاثينيات، ناهيك عن القرار الذي اتخذه هتلر وأتباعه للقضاء على اليهود وغيرهم من العناصر «غير المرغوبة»، أو «غير النقية».

هناك استخدام لرسائل الاحترام أو عدم الاحترام، والتسامح أو عدم التسامح في كل أنحاء المجتمع. وهناك دروس وعبر كثيرة تؤخذ من حضور أو غياب أفراد من مجموعات مختلفة في نطاق الألعاب الرياضية،

ووسائل الإعلام، والمجال السياسي؛ حتى إن هناك استنتاجات تؤخذ في ضوء الأدوار التي يتولاها أعضاء مجموعات كهؤلاء والأساليب التي تعامل بها مصالح الأكثرية أو النخبة في المجتمع، المجموعات أو الأشخاص الأقل نفوذاً. ويمكن لشركة ما أن تفاخر بسجل إحصائي يفيد أن عشرين بالمئة من موظفيها هم من العمال الأميركيين الأفارقة، غير أن الزائر أو من جرى استخدامه مؤخراً سوف يلاحظ سريعاً ما إذا كان السود هم من موظفي الاستقبال أو الإداريين، وما إذا كان أولئك الموجودون في قاعة الاجتماعات يقومون بأعمال الخدمة أو تتم خدمتهم، وأي جماعات يتم إظهارها عادة في الإعلانات الدعائية أو المقابلات الإعلامية وأيها تخصص لأداء أعمال إلى جانب أعمالها الأساسية أو يتم إبرازها في مقابلات مختارة فقط.

وفي الحقيقة، فإنني سوف أذهب إلى حد القول إن المقاييس الحقيقية للاحترام يمكن اكتشافها كل يوم عندما لا يكون أحد يبحث عنها بشكل فعّال، إذا صحّ التعبير. وإنه لأمر أساسي بالنسبة لرجل سياسي ـ سواء كان محافظاً أو عضواً في مجلس الشيوخ أو حتى رئيساً ـ أن يقول إنه (أو إنها) يحب جميع الكائنات البشرية؛ ومن السهل وضع الأقليات في مواقع ظاهرة للعيان والتقاط الصور معها. ويلاحظ المراقب الذي يعتريه الشك من هم المستشارون الدائمون للسياسي، ومن الذي يوفده إلى اجتماعات تنطوي على مجازفة كبيرة (بالمقارنة مع الاجتماعات الاحتفالية) ومع من يقضي السياسي وقته الخاص، مع من يتبادل المزاح، يمارس رياضة الغولف، ويشاركه الثقة واللحظات الحميمة.

مـا هي علامـات الاحـترام الخاطئ أو الاحـترام الزائف؟ للأسـف فإن علامات الاحترام الخاطئ آخذة في التزايد وهناك أشـكال متنوعة مألوفة اكتسـبت مؤخراً صفتها القوية الخاصة، هي الميل إلى النيل ممن يعانون وضعاً صعباً، ومحاولة استرضاء بعضهم بحملهم على تلبية حاجة شخصـية. لقـد أحرز جمع كبير من الأشـخاص الذين يتولون مناصـب ذات نفوذ مركزهم الرفيع جزئياً، بسـبب مقدرتهم على الإطراء وخدمة أولئك الذين يشغلون مسبقاً مناصب تمتلك صلاحيات ما. إلا أنه عندما تتم مشـاهدة هؤلاء الأشخاص أنفسـهم وهم يتجاهلون، ويلحقون الأذى أو يستخفون بأولئك الذين يمتلكون نفوذاً أقل، فإنهم يكشفون عن غياب الاحترام الحقيقي للآخرين.

لقد سنحت لي الفرصة لكي أراقب الاحترام الخاطئ على مر السنين. ولقد قمت في كثير من المناسـبات بتكوين نظرة إيجابية عن شـخص آخر (فلنطلق عليه اسم ريكس) شخص يتصرف تجاهي بأسلوب ودي ويراعي المشـاعر، غير أنه بعـد ذلك -ولدى الحديـث مع أطراف ثانية- سـمعت روايات سلبية تماماً عن ريكس. فالتمحص يكشف عن وجود نموذج مثابر. وقد كنا أنا وريكس على المسـتوى ذاته في مؤسسـة أو كنت أنا المشرف على ريكس، أو أن ريكس كان قد أراد شـيئاً مني مثل توصية لوظيفة يرغب بها، وبالمقابـل فإن الأشـخاص الذين يشـتكون من ريكس هم ليسـوا في وضـع لمساعدة ريكس، أو هم في الواقع أشخاص يعتمدون عليه، وأنا أذكر حالات حيـث يتوصـل ريكس إلى تولي مركـز أعلى باعتباري مرجعـه، وعليه فقد بدأ بالتصـرف بطريقة تنم عن مراعاة أقل لمشاعر الآخرين. وقد علمني هذا السـيناريو المتضمن الميل إلى النيل ممن يعانون وضعاً صعباً ومحاولة

استرضـاء البعض بحملهم علـى تلبية حاجة شخصـية، علمني أن ريكس قادر تماماً على التصـرف بأسلوب محترم عندما يكون لديه شيء يكسبه منه، ومن تلك الناحية فإنه قد يكون في وضـع يرثى له أكثر من الشـخص الذي يظهر عدم احترام مماثل عبر التسلسل الهرمي للمراتب.

هناك شكل مماثل ملاحظ في الأشخاص الذين يعرفون كيف يظهرون الاحترام في أجواء عامة إلا أنهم يعودون إلى النكات المكررة التي لا تتغير، أو للأسـوأ عندما ينحسـر التركيـز عليهم. وهنا يبرز الاحـترام باعتباره محـدداً مـن قبـل الزمان والمكان بـدلاً من اعتبـاره فرضـية تحكم جميع العلاقات الإنسانية.

ثـم هنـاك اللياقة السياسـية ـ وهي تعـد حالياً مصـطلحاً يبعث على الازدراء أو السـخرية. وعندما تسـتخدم هكذا فإن اللياقة السياسية تدل على عادة الحديث والتصرف بشكل إيجابي تجاه جماعة معينة، فقط لأن تلك الجماعة كانت قد تعرضـت في الماضي لسـوء المعاملة، وهي تستخدم للطعن في أي شـخص قد يقول أي شـيء عن تلك الجماعة. ويشـير عدم اللياقة السياسية في المقابل إلى عادة النيل من اللياقة السياسية ـ أي تعمد قول أو فعل شـيء خطير يمس بالجماعة المستهدفة، أو أولئك الذين سوف يحمونها من الانتقاد.

إن تحديـد مـا إذا كانـت حالة ممـا يطلق عليها اسـم لياقة سياسـية تشمل الاحترام ليس بالأمر السهل. فعندما يتصرف المرء بالطريقة ذاتها تجـاه جميع أفراد جماعة مـا تماماً بحكم عضـويتهم في الجماعة ودون بـذل جهد للتمييز بين الأفراد فإنني سـوف لن أعتبر ذلـك على أنه دلالة

علـى الاحترام، ولكن إذا ما كان تصـرف المرء تجـاه الأفراد يعكس جهداً حقيقياً خالصـاً لمساعدة وفهم كل فرد، عندها سوف أعتبر ذلك النموذج محترماً. ومن جهة أخرى فإن عدم اللياقة السياسية يشمل عدم الاحترام سـواء تجاه اللائق سياسـياً أو تجاه تلك الجماعات التي يسـعى اللائقون سياسياً إلى تحسين معيشتها.

إن الفرد المحترم حقاً يتيح فائدة الشك لجميع الكائنات البشرية. فهو يتجنب قدر الإمكان التفكير بلغة الجماعة، وهو يدخر النقد لأولئك الذين يستحقونه فعلاً، هو يظل منفتحاً على إمكانية أن يكون حكمه خاطئاً ربما. وهو مسـتنفر من أجل إحداث تغيير في السلوك والذي بالمقابل سوف يعيد تأسيس شعور بالاحترام تجاه ذلك الشخص الآخر.

ومن وجهة نظري فإن الاحترام لا يجب أن يستتبع تعليقاً كاملاً للمنطق، فعندما يتصـرف شخص ما بصورة ثابتة على نحو لايدعو للاحترام تجاه الآخريـن، فإنـه لا بد من مسـاءلة ذلك الشـخص. وإذا ما اسـتمر عدم الاحترام وتردى إلى تصـرف غير اجتماعي بشـكل صريح، فإنه لا بد من نبذ ذلك الشـخص من المجتمع (في أمور نـادرة، قد تفقد جماعة بأكملها حقها في أن تحترم). فقد واصل المهاتما غاندي محاولاته للتأثير في هتلر، وكتب الزعيم الهندي رسـالة إلى هتلر معنونة «صديقي العزيز» داعياً إياه إلى تغيير أسـاليبه الحربيـة مع وعد بالغفران في المقابـل[8]. وعقب هتلر بـدوره قائـلاً «اقتلوا غاندي، وإذا لم يكفِ ذلك لإجبارهم على الخضـوع، اقتلوا مجموعة من القياديين الأعضاء في حزب المؤتمر» [الحزب السياسي الذي أسسـه غاندي][9]. وعندما يشجع الاحترام غير المشروط ردود فعل معادية للبشرية بصورة تفتقر للوعي، فإنه يعود بنتائج عكسية.

قيمة الاحترام

بإمكان المرء أن يحظى بتعليم علمي، رياضي، وتقني ممتاز في بيئة متعصبة للغاية. وغالباً ما يتجسد هذا الوضع بالضبط في أنظمة متشددة في الاتجاه الديني، أو استبدادية من النواحي السياسية، وإذا ما رغب المرء في تربية أشخاص يحترمون الاختلافات عبر الجماعات، فإن عبئاً خاصاً سوف يُلقى على عاتق التعليم في مجالات العلوم السياسية. العلوم الإنسانية، الفنون والآداب. غير أنه ودون مواربة، لا يمكن لمثل هذا التعليم أن يتجاوز قضايا الاحترام تحت عنوان دراسة اختصاصية «محضة». ومن الضروري بدلاً من ذلك إجراء مقارنة مباشرة لقيمة الاحترام، تكاليف الاحترام والتكاليف الأضخم اللا محدودة لعدم الاحترام (على المدى الطويل).

إن أفضل طريقة لمقاربة هذه القضايا خلال السنوات الأولى من الدراسة تتم من خلال إجراء تجارب يعمل عليها معاً أفراد من جماعات مختلفة في مشاريع مشتركة، ويتوصلون إلى معرفة بعضهم بعضاً مباشرة، ويتعاملون مع الاختلافات بأسلوب ودي ويكتشفون أن وجهة نظر ما قد تكون مختلفة دون أن تكون ضعيفة. ومن المهم، إضافة إلى ذلك، قراءة الكتب، مشاهدة الأفلام السينمائية، الانهماك في اللعب مع الآخرين ومحاكاتهم حيث يتم تشكيل وتعزيز العلاقات المحترمة بين الأفراد والجماعات، وحتى لا يبدو دور الوسيط عديم الأهمية، دعوني أذكر شعاراً لاحظت وجوده في متحف يعيد تجسيد أجواء صف مدرسي ألماني يعود للعام 1912. وصدّق أو لا تصدّق، فقد حمل ملصق إعلاني كبير رفع على الحائط تعليقاً تحت

الصورة (مكتوباً باللغة الألمانية) يقول «يجب على المرء أن يكره الجيران». فهل من المستغرب أن حرباً عالمية اندلعت بعد ذلك بعامين بين ألمانيا من جانب وعدد من جيرانها على الجانب المتحالف المعارض؟

وفيما يبدو من السهل السخرية منها إلّا أن الجهود الحالية المبذولة في نطاق التعليم الأميركي لتخصيص وقت مساو لسلسلة من الأعياد الدينية، ولأبطال نموذجيين من جماعات مختلفة، تلقى تشجيعاً جيداً. وتنطوي هذه الجهود على معنى خاص بالنسبة لأفراد من الأقليات الذين يشعرون أنهم غير مرئيين في تركيبة السلطة الخاصة بمجتمعهم. ومع ذلك وطالما ينظر إلى هذه الجهود العالمية على أنها مظاهر خادعة وتحريف للحقائق لائق سياسياً، أو أنها لا تؤكدها السلوكيات التي تشاهد كل يوم، فإنها قد تثبت عدم جدواها أو حتى قد تأتي بنتائج عكسية. وينظر إليها أعضاء جماعة الأكثرية باعتبارها إيماءات تافهة لا قيمة لها، وفارغة من أي معنى حقيقي؛ فيما ينظر إليها أعضاء جماعات الأقليات على أنها جهود مشجعة من أجل شراء نقاد ممكنين بالمال لدفع أذاهم. وتنتشر مثل هذه الأجواء المتوترة في دول أوروبا الغربية التي استوعبت في العقود الأخيرة ملايين المهاجرين من إفريقيا، وآسيا، والأقاليم الأفقر من أوروبا. إن استقرار «أوروبا العجوز» ورخاءها النفسي سوف يتقرر عن طريق ما إذا كان سيتم تجاهل المهاجرين، دعمهم، أو منحهم مكاناً حقيقياً في وطنهم الجديد. وللإرهاب أسباب عدة غير أن الشعور العميق بالعزلة وبالاغتراب في مكان الإقامة الحالية للمرء هو بالتأكيد سبب رئيس من بين هذه الأسباب.

وحينما يتنقل المرء عبر سنوات الطفولة المتوسطة ويدخل مرحلة البلوغ، فإنه يجب صرف مقدار كبير من الوقت في التعاطي بصورة واضحة، مع قضايا أعضاء الجماعات ونزاع الجماعات. ومن الملائم في هذه الحقبة طرح مقررات دراسية مثل «مواجهة التاريخ ومواجهة أنفسنا». فهذه الفرصة الدراسية المعروفة جيداً في المنهاج المدرسي الأميركي تبدأ بشكل معهود «بالهولوكوست»، محرقة إبادة اليهود التي شهدتها الحرب العالمية الثانية، وتُتابع لتشمل حالات من النزاع العنصري والعرقي موجودة في زوايا مختلفة من العالم. وسواء كانوا يقرؤون أعمالاً أدبية، أو يجرون تحليلاً للأحداث التاريخية أو النظام السياسي لدول مختلفة، ويدققون في الأعمال الإنتاجية الفنية لمنطقة ما، أو يناقشون الأحداث الراهنة، فإنه يجب وضع الطلاب وجهاً لوجه أمام كيفية تواصل الجماعات مع بعضها في الماضي وكيف بالإمكان أن يتواصلوا على نحو مثمر في المستقبل.

دعوني أرد على اثنين من الاعتراضات الممكنة. وقبل كل شي، أنا لا أستطيع على الإطلاق ضمان أن التسامح الأكبر سوف ينتج عن مثل هذه المناقشة المفتوحة. والحقيقة فإن النتيجة العكسية قد تغلب مبدئياً حيث إن الطلاب (غالباً مايعكسون ماسمعوه في البيت الأبيض أو على أرض الملعب أو عبر وسائل الإعلام) يبدون تحفظات عميقة إزاء الجماعات المختلفة عن جماعتهم. إن عرض هذه الآراء على الملأ هو مظهر مهم رغم أنه غالباً مظهر غير مريح من مظاهر التعليم، فاليهود لايروق لهم سماع الآراء المتعصبة لأشخاص من غير اليهود ولا سيما المسيحيين (ولا يرحب غير اليهود بتعصب اليهود)، ولكن ما لم يتم التعبير عن هذه الصور

المشـوهة وتتم مواجهة حسـناتها وسيئاتها بشـكل علني ومفتوح، فإن مثل هـذه المفاهيم الخاطئة سـوف تقـوم بالنخر في الخفاء، وسـتكون جاهزة لاستغلالها من قبل شخص ديماغوجي.

ثانيـاً، أنـا لا أقصـد أن ألمـح إلى أنه يجب التضـحية باختصاصـات التاريخ أو الأدب أو علم الاقتصـاد من أجل دراسـة العلاقات الجماعية. ولا شـك أن أوجه هذه الاختصاصات يمكن بل يجب أن تدرس عن طريق مـواد «محايدة». وتعد بعض جوانب التأريخ للأحداث أو علم الاقتصـاد المصغر، عالمية مثلها مثل الرياضيات أو علم الأحياء، غير أنه من المهم أن يورد المربون في توجيههم الاختصاصـي حالات واضحة تماماً حيث كانت فيها العلاقات بين الجماعات عوامل رئيسة أو حتى مصيرية ـ كما يحدث غالباً في القضايا الإنسانية.

لقد ناقشـت حتى الآن الاحترام بشـكل رئيس في سـياق قيم وأوسـاط التدريس، إلا أن الاحـترام بالطبع مهم في مكان العمل وفي المجتمع المدني على حد سـواء. ومن الواضح أن المؤسسات والمجتمعات تعمل بفاعلية أكثر عندما يسـعى الأفراد في داخلها إلى فهم بعضـهم بعضا (على الرغم من الاختلافات بينهم) لمسـاعدة بعضهم بعضـا، والعمل معاً من أجل تحقيق الأهـداف المشـتركة. إن الأمثلـة الخاصـة بالقيـادة الإيجابية تعـد بالغة الأهمية هنا، وإن فرض عقوبات واضـحة بسـبب عدم الاحترام ـ بما فيها النبذ أو الطرد ـ هي مهمة كذلك. والأقل وضوحاً للفهم هو أنه من الصعب المحافظـة على الاحترام داخل مؤسسـة ما عندما يكـون أولئك الذين هم خـارج المؤسسـة يُعدون أعـداء. وعلى أي حال فإن من ينافسـون المرء هم بشـر أيضـاً. وربما ينتهي الأمر بالمرء تماماً عند المؤسسـة المنافسة؛ وبعد

حـدوث عملية الاندماج التالي أو عملية الاسـتيلاء، فلربما يتم اسـتيعاب المرء حتى في أعماق المنافس السـابق، هناك قصـة تروى عن قيام مدرب في جامعة هارفرد، وفي مسـعى منه لتشـجيع فريق كـرة القدم الذي يقوم بتدريبـه، باللجوء ذات مرة إلى خنق كلب من نـوع بولدوغ ـ تعويذة الحظ السعيد لجامعة ييل المنافسة. آمل أن تكون هذه القصة ملفقة.

وقـد انبثقت بعض الرؤى العامة عن دراسـات أجرتها فرق فاعلة أثناء العمـل. وأكـدت إيمـي أدموندسـون وزملاؤهـا في وثائق الدراسـات التي أجرتها الفـرق المرتبطة بجراحة القلب أن العمـل الجماعي الناجح يعتمد على مهـارات الإدارات أكثر من اعتماده على الخبرة الفنية لقياداتها[10]. ويسـتجيب أعضـاء الفرق بشـكل إيجابي عندما تؤخذ اقتراحاتهم بجدية وعندما يتم التمعن في إجراء ما بأسلوب جامعي، وبالكتابة بأسلوب مماثل يوجه ديفيد غارفن ومايكل روبرتس نصيحة إلى القادة بأن يفسروا صناعة القرار باعتبارها آلية ما بدلاً من حدث ما[11]. ولابد من تشـجيع أعضـاء جماعة ما لكي يطرحوا أسئلة عن بعضهم ويزنوا حسنات وسيئات البدائل، ويؤيـدوا مواقـف غـير مواقفهم؛ فمثـل هذه المقاربة تعمل ضـد التسلسـل الهرمي وتشجع على إشاعة القبول حالما يتم اتخاذ قرار ما.

واسـتناداً إلى تجاربـه الخاصـة كمؤسـس وكمديـر تنفيـذي لمركز كزيروكس باولـو آلتو للأبحـاث (المعروف عادة باسـم بارك PARC) يتحدث جون سـيلي بروان مباشـرة عن المؤسسـة المحترمـة [12]. فقد سـعى لكي يفهم لماذا كانت الابتكارات التكنولوجية الذكية كثيراً ما يتم إطلاقهـا في PARC ومـع ذلك يتم رفضـها بـازدراء وبانتظام من قبل

الثقافة الأوسع لشركة كزيروكس ـ وبذلك يغني الموارد المالية لشركة اپل للكمبيوتر المنافسة بدلاً من أن يعزز من وضع شركة كزيروكس. ويخلص براون إلى أن المبتكرين في «بارك» لم يفهموا ولم يحترموا المهندسين والإداريين في شركة كزيروكس، وأن غياب القدرة على فهم مشاعر الآخرين (التعاطف) امتد على نحو مماثل في الاتجاه الآخر. وقد بدأت هذه الصورة المثبطة للعزيمة تتغير عندما قام أفراد كل ثقافة مميزة بجهود حقيقية لفهم الآخر بدلاً من قولبة الآخر. وجازف المهندسون ومسؤولو التسويق بالانخراط في ثقافة «بارك» وتولى المصممون والمخترعون القيام بأعمال أولئك المكلفين بتحقيق الربح في الشركة الأم. وكانت النتيجة احتراماً متبادلاً أقوى وفي النهاية نجاحاً أكبر للكيان الأوسع لشركة كزيروكس.

لقد جرى أحياناً كيل المديح لمبدأ المقدرة على عدم الاحترام. ففي مقالة كتبت بأسلوب استفزازي متعمد، يدافع رودني كريمر عن أولئك المديرين التنفيذيين الذين يتعاملون بخشونة مع موظفيهم الذين يحكمون عن طريق الإهانة والترهيب بدلاً من اعتماد العقل وبث الطمأنينة[13]. ويشير كريمر إلى أن مثل هذه الأساليب تكون مرغوبة بشكل خاص عندما تكون هناك حاجة إلى تغيير سريع في مؤسسة كانت تعمل وكأنها في حالة خدر. وهو يجادل كذلك بأن الموظفين كثيراً ما يتوصلون إلى تقدير قيمة مثل هذه الأساليب من الترهيب التي تمارس على الضعيف. فكلمات وأفعال من يقوم بالتهديد تعمل على تصفية الأجواء والتخلص من كل من لا حاجة إليه، وتشجع هؤلاء الموظفين أنفسهم على تحمل النقد [وعدم الانزعاج منه بسهولة]. وأنا لا أشك بأن مثل هذه الأساليب ربما تساعد

على تحقيق التحول الذي يجري بين الحين والآخر، ولكن في حال أصبحت هذه الأساليب هي المعيار فإنها تقوم بتدمير تركيبة مؤسسة ما. ومن المحتم على المدى الطويل أن يؤول الحكم عن طريق القوة، وإصدار الأوامر والخوف والعنف والغضب إلى الفشل، إضافة إلى ذلك فإنه من الأسهل بكثير المطالبة بمثل هذا الموقف عندما يكون المرء دخيلاً بدلاً من أن يكون في الداخل (الأكثر دقة: حبيساً) ضمن المؤسسة المجهدة التي تعيش ظروفاً عصيبة ـ سواء كان ذلك فريقاً طبياً يصارع لإنقاذ أرواح أو لإنقاذ شركة تعاني من صعوبات في تلافي الإفلاس.

إن غرس الاحترام في النفس هو أسهل ما يمكن إنجازه في السنوات الأولى من العمر: غير أنه إذا كان مسموحاً لي أن أستخدم نفسي كمثال فإن الأوان لا يفوت أبداً. فقد كان لي في السنوات الأخيرة رد فعل مبدئي غير محترم تجاه وضع ما مرتين، وفي كلتا الحالتين غيرت رأيي مدفوعاً إلى حد ما، بعملي على وضع هذا الكتاب.

عندما سمعت لأول مرة أن مسؤولاً في فرنسا كان قد أصدر قراراً بمنع فتيات ونساء مسلمات من ارتداء الحجاب وغيره من الملابس الدينية في المدرسة، شعرت بتعاطف مع القرار، فقد كانت المدارس الفرنسية رغم كل شيء مقررة لتكون علمانية طوال قرنين. ولا بد لأولئك الذين يحضرون الدروس فيها أن يحترموا ذلك الالتزام غير الديني، ولكن عندها، وبالموازنة ما بين ما يلحق بالنساء من خسارة نتيجة حرمانهن من أمر مهم في ديانتهن، وبين إدراك أن الحجاب لم يتعد في الواقع على حريات أي شخص آخر، فقد خلصت إلى أنه لابد للاحترام من أن يفوق عرفاً قديم العهد.

وعلى نحو مماثل، فعندما سمعت للمرة الأولى عن قرار الصحف الدنماركية نشر رسوم كاريكاتورية تنتقد قادة للمسلمين وعادات يمارسونها، شعرت بأنه لا بد لحرية التعبير من أن تسود، غير أنه عندما تبين لي مدى الأذى الذي شعر به الأشخاص المسلمون في كل أنحاء العالم وعلمت ـ في آخر الأمر ـ بالعنف الذي نجم عن ذلك، فقد أعدت النظر في ميولي المبدئية. فالرسوم الكاريكاتورية هي بشكل خاص صورة شريرة من السخرية، وهي مهينة لاسيما بالنسبة لهؤلاء الذين ليسوا على معرفة بذلك الاصطلاح، وبينما يجب السماح للفنانين بأن يرسموا ما يشاؤون، وأن يشعر كتّاب المقالات الافتتاحية في الصحف بأنهم أحرار في توجيه النقد إلى أي مؤسسة وإلى جميع المؤسسات، فإن الضرر الذي يتم إلحاقه بنشر الصور الكاريكاتورية يبدو بليغاً وغير ضروري؛ فلا الفنانين ولا الصحافة الحرة كانوا سيعانون بشكل غير مناسب لو أنه جرى التعبير عن الانتقادات بالكلمات بدلاً من الصور. ولهذا السبب فإنني سوف أواصل الدفاع عن حق سلمان رشدي في نشر كتاب «آيات شيطانية» وطبعاً أدين أولئك الذين أصدروا فتوى في حقه.

إنني أورد هذه الأمثلة ليس للإصرار على أن الاحترام يجب أن يفوق الفضائل الأخرى دوماً، ولا لأدلل على أن تغيير مواقفي كان صحيحاً بالضرورة. وبالأحرى، فإنه يجب علينا في الأرض العالمية المركبة التي نعيش فيها الآن، وكلما كان ذلك ممكناً، إعطاء أولوية الاحترام لأولئك الذين لديهم خلفيات ومعتقدات مختلفة ـ ولنأمل بأنهم سوف يقومون برد المعروف.

الاحترام عكس التوقعات

هناك طرق لا تعد ولا تحصى يمكن بها تغذية الصفات المميزة العديدة للاحترام، فهؤلاء الذين يمتلكون نزعة فلسفية يتعاطون مع هذا المجال من خلال مناقشة المبادئ الأخلاقية، علم الأخلاق، حقوق الإنسان، وواجباته. إن حصيلة سعيدة لهذه المقاربة هي النظرة إلى جميع البشر باعتبارهم جزءاً من مجتمع واحد (أحياناً تمتد مثل هذه النظرة الشمولية إلى جميع الحيوانات أو حتى إلى الكون المقدس بالكامل للكيانات الحية وغير الحية). ويفضل بعض الناس طرقاً تجريبية للتفاعل. فيتوق مثل هؤلاء الأشخاص إلى اللعب، التوظيف، أو التطوع مع مجموعة متنوعة من الأفراد؛ والأمل معقود على أن المزيد من الآراء التي تحمل فارقاً يكاد لا يذكر سوف تظهر على أرض الواقع. وتعد برامج المدارس التي ترسخ الميول الإنسانية برامج واعدة. ففي برنامج يدعى «السنتات العامة» مقره مدينة نيويورك يقوم الصغار بجمع قطع نقدية صغيرة من الأهالي، ثم يقررون كمجموعة، كيف يوزعون هذه الموارد المالية. وبالإضافة إلى ذلك يجب توجيه أولئك الذين يمتلكون إمكانية تولي القيادة إلى استغلال مهاراتهم من أجل تشجيع مجموع الأعضاء والقيام بمهام إيجابية وشاملة، كما يجب تشجيع الأشخاص الذين يمتلكون ميلاً للالتزام من أجل بناء مؤسسات تخدم الخير العام بدلاً من خدمة المزيد من الغايات الأنانية، التي يتم توظيفها والترويج لها عبر سلسلة الطيف الديمغرافي، كم هو أفضل للشباب أن يجتمعوا معاً من أجل بناء منازل أو تقديم حفلات موسيقية مجاناً للفقراء، بدلاً من الاستمرار في التسكع واللهو في الشوارع أو تدخين

الماريجوانا في قبو جيرانهم. فالمراهقون يمتلكون إمكانيات تولي القيادة، أو المبادرة والإقدام والتي يمكن توجيهها لغايات عكسية، ويعود الأمر إلى كبارهم ـ أولياء الأمور، المربون، قادة المجتمع والأنداد الأكبر سناً بقليل والأكثر نضجاً ـ لكي يؤثروا في كيفية استخدام هذه الإمكانيات.

من المفيد ـ والمروع ـ في هذا السياق أن نسمع عن الذين حضروا مؤتمر ڤانسي في برلين في شهر كانون الثاني من عام 1942، حيث تم اتخاذ القرار بالتعهد «بالحل النهائي» [الإبادة الجماعية لليهود] ومن بين الأشخاص الأربعين الحاضرين وجميعهم رجال، كان ثمانية منهم يحملون شهادات عالية من جامعات في وسط أوروبا. ومن الواضح أن سنوات الدراسة ليست بضمان لعقل محترم.

لا توجد صيغة وحيدة تعطي -بشكل موثوق- أشخاصاً يحترمون الآخرين، ويأتي برهان مهم على ذلك وبصورة خاصة من الدراسات التي أجريت حول المنقذين سكان أوروبا التي كانت تحت الاحتلال النازي والذين اختاروا المجازفة بأنفسهم على نحو كبير، بتوفير المخابئ لليهود وأي أشخاص آخرين كانوا يتعرضون للمطاردة. ووفقاً لصامويل أولينر، فقد بدا المنقذون عاديين تماماً من الخارج؛ وكانوا يشبهون الكثيرين من الآخرين الذين كانوا يتخذون موقف المتفرج وحتى من بعض الذين قدموا مساعدة فعّالة للغستابو[14]. وأظهرت دراسة متعمقة أكثر وجود فروق ذات دلالة. فقد كان المنقذون يتميزون بطفولة تجنب خلالها أولياء أمورهم إنزال العقاب الجسدي بهم، مختارين بدلاً من ذلك تقديم تفسيرات واضحة للقواعد المعمول بها وللعادات، وبرز المنقذون من بين المدنيين من

رفاقهم بالقيم المتينة ـ غالباً ما كانت دينية ولكن ليست بصورة ثابتة ـ التي استوعبوها من أولياء أمورهم، وبموقف بناء ومتفائل اتخذوه تجاه الحياة، وبأحاسيس بالارتباط بالآخرين، وحتى بأولئك الذين ينتمون إلى جماعة أخرى، وقبل كل شيء برد فعل بَدَهي (والحقيقة غريزي) بأن ما كان يجري إلحاقه بالأبرياء كان خطأ وأنهم هم أنفسهم كانوا عناصر قادرة يحسن بها (والحقيقة يجب عليها) أن تتخذ خطوة تصحيحية.

وقد جرى في السنوات الأخيرة بذل جهود فردية مثيرة للاهتمام للمساعدة على إحداث تقارب بين جماعات كانت متباعدة عن بعضها مدة طويلة من الزمن. وسعى بعضهم إلى بناء الجسور من خلال إسهام مشترك في نشاطات موسيقية. وبالعمل مع الكاتب الأميركي الفلسطيني الراحل إدوارد سعيد، قام دانييل بارينبويم، وهو عازف بيانو وقائد أوركسترا يهودي يمتلك أصولاً جغرافية متعددة، قام بإنشاء «ورشة عمل دايڤان بين الشرق والغرب». ويقدم هذا المشروع فرقة موسيقية تتألف من موسيقيين من الشباب الإسرائيليين والعرب. وخلال قضائهم للصيف معاً في الأرض المحايدة نسبياً لأوروبا الغربية، يعمل هؤلاء الموسيقيون الشباب معاً على عزف مقطوعات من المؤلفات الكلاسيكية (غالباً أوروبية). وهم يعقدون مناقشات مفتوحة في الأمسيات يناقشون فيها موضوعات سياسية وثقافية حساسة مع أفراد من الجماعة «الأخرى». وهذا اللقاء هو غالباً المرة الأولى التي يتكلم فيها بالفعل شاب إسرائيلي أو فلسطيني مع أشخاص كانوا يمثلون العدو حتى الآن.

وتعمل النشاطات المشتركة الخاصة بتقديم أعمال موسيقية نهاراً وإجراء مناقشات وافية لمواضيع صعبة في المساء، تعمل على تحقيق التقارب بشكل أوثق بين أعضاء الجماعتين. وكما جرى إيضاحه من جانب

بارينبويم وسعيد فقد «كانا يحاولان أن يفعلا شيئاً معاً، شيئاً كانا يهتمان به كلاهما، وكانا مولعين به كلاهما.... إن تحويل هؤلاء الأولاد من شيء إلى آخر كان أمراً غير قابل لإيقافه أساساً.... وإذا ما قمنا بتبني وتشجيع هذا النوع من الاتصال في الأمور الثقافية، فإنه قد يساعد الناس على أن يشعروا بأنهم أقرب إلى بعضهم، وهذا كل شيء»[15].

ومن المؤكد أن فرقة موسيقية تضم العشرات من الشباب الشرق أوسطيين، ليس بإمكانها أن تحل مشكلات منطقة كانت قد فرقتها الصراعات على مدى قرون. إضافة إلى ذلك فإن كلاً من اللذين أسسا الفرقة الموسيقية كانا هما أنفسهما موضع جدل. ولم يمتلكا إمكانية ضئيلة من أجل استقطاب المؤيدين والنقاد. (من المشكوك فيه أن يكونا قد تمكنا من تحقيق ما فعلاه دون تجنب إثارة الجدل). وكما عقب بارينبويم «فإن شخصاً مصمماً على فعل شيء بنَّاء في حياته يحتاج إلى التكيف مع حقيقة أنه ليس كل شخص سوف يحبه»[16]. ورغم ذلك فإن مجرد تكوين فرقة موسيقية، وإقامة سلسلة من ورش العمل الموجهة سياسياً، هو فعل شجاع يستحق الثناء»؛ ومثل دبلوماسية رياضة كرة الطاولة التي ساعدت على إذابة الجليد بين الصين وأميركا في بداية السبعينيات فإن تقارباً فنياً ربما يساعد في آخر الأمر على إحداث مصالحة سياسية. وبالفعل فإنه وخلال الأسبوع ذاته من عام 2005 الذي كان يجري خلاله إعادة قطاع غزة إلى الفلسطينيين، قام شباب الفرقة الموسيقية بالعزف في مدينة رام الله. وفي صيف عام 2006، عندما كانت إسرائيل وحزب الله يتبادلان أعمال القصف، كانت الفرقة الموسيقية تقيم حفلاتها في ثلاثين مدينة، وقد علق بارينبويم على ذلك قائلاً: «هذا ردٌ صغير جداً على الفظائع الهائلة للحرب»[17].

وكان متأثـراً بهـذه المبادرة ولكنه اتخذ مسـاراً مختلفاً نوعـاً ما أطلق عازف آلة الفيولنسـيل يو ـ يو ما «مشـروع طريق الحرير» في عام 1998. وكان الهدف الفني للمشروع جذب انتباه أكبر إلى موسيقى البلاد العديدة التـي شـكلت ممـراً لطريق الحريـر القديم ـــ طريق تجـاري طويل عابر للقارات، والذي كان قد قطعه الآلاف من التجار في أسـفارهم منذ الألفية الأولى قبـل الميـلاد إلى الألفية الثانية بعد الميلاد. وبعزف قطع موسـيقية من دول مثل إيران، كازاخسـتان، أوزباكستان، تركيا والصين، واستخدام كل من المؤلفين الموسيقيين والعازفين من تلك البلاد، يأمل «ما» ومساعدوه أن يكونـوا قادرين على نقل تجارب وعبر مهمة عن الجنس البشـري: بأنه ليسـت هناك موسيقى أصلية خالصة رغم أن هناك تقاليد فنية حقيقية. وبـأن جميع المجتمعات تتعلم من بعضـها تاريخياً وفي العصـر ذاته، وبأن الفـرح والتفاهم يمكـن أن ينبثقا عن عروض ممتـازة للكثير من التقاليد الموسيقية والتعاليم والعادات الهجينة.

وبصفته شخصـاً وُلد في فرنسا لأبوين من أصل تايواني، لكنه متمرس في علـم الأجناس البشـرية، ومقيم في أمـيركا غير أنه تنقـل حول العالم باسـتمرار، فـإن «ما» متحمس لاسـتخدام المشـروع كطريقـة للتأكيد على الصلات الروحية الأساسـية بين جميع الكائنات البشرية. «ويأمل المشروع أن يشجع على إيجاد تعاون وإحساس بالانتماء إلى المجتمع بين الموسيقيين، والحضـور، والمؤسسـات التي تتقاسـم الافتتان بنوع الخيـال الفني العابر للثقافات الذي يرمز إليه طريق الحرير»[18]. ويحاول مشروع طريق الحرير، بهدفه الطموح، أن يكتسـب أنواعاً متعددة من المساعدات التعليمية، وهذه

مخصصة لمساعدة المدرسين والطلاب على معرفة أجزاء بعيدة من العالم والشعور بالارتياح إزاء السكان والأعمال الفنية لهذه المناطق، وتفهم تطور الثقافات وتأثير كيان جغرافي قديم على عالم اليوم.

ويسعى هذان المشروعان الموسيقيان إلى إيجاد تفاهم أفضل واحترام متبادل عالي المستوى عبر وسائل هي في المقام الأول ليست لفظية. فماذا عن الأوضاع التي ارتكبت فيها أعمال إجرامية رهيبة وبشكل رئيس من قبل جماعة ذات نفوذ ضد مدنيين أقل نفوذاً؟

هنالك تفسيرات بالغة الأهمية تصدر عن لجان تقصي الحقائق والمصالحة التي تم إنشاؤها في السنوات الأخيرة في جنوب إفريقيا وكذلك في العشرات من المجتمعات الأخرى. وقد نشأت مثل هذه اللجان نتيجة لإدراك مزدوج. فقد تم من جهة ارتكاب أعمال وحشية لا تغتفر ضد أفراد جماعة وغالباً على أساس عوامل المصادفة تماماً: من كان أهلهم بالولادة (الأهل البيولوجيون) وأين صادف أن نشؤوا (العبارة الملطفة هي تطهير عرقي، والإبادة الجماعية هي الواقع في معظم الأحيان). من جهة أخرى إذا كان على المجتمع المحيط أن يظل متماسكاً على المدى الأبعد، فإنه لأمر بالغ الأهمية بالنسبة لأفراد الجماعتين كلتيهما ـ الضحايا ولكن أيضاً الجلادين أو من يوقعون الضحايا ـ أن يكونوا قادرين على متابعة المسير[19].

على أثر الأماثيل الورعة التي قدمها المهاتما غاندي ونيسلون مانديلا، يجب على أعضاء الأطراف المتضررة أن تعد بالتخلي عن الأسلحة الارتدادية للانتقام، وفلسفة «العين بالعين» والتي أججت على مدى قرون

دورة لا نهاية لها من العنف. ويعرض الضحايا بدلاً من ذلك، تقديم هدية المصالحة لأولئك الذين هم مستعدون للاعتراف بأفعالهم، والاعتذار عن تلك الأفعال والإعراب عن الندم، وطلب المغفرة. إن مغفرة كهذه ليست ممكنة دوماً. وهي نادراً ما تكون سهلة ليتم منحها في أي وقت، غير أنه من الممكن للأفراد أحياناً أن يضعوا الماضي وراءهم، على الأقل ليسامح بعضهم بعضاً، وفي أفضل الحالات، ليكتسبوا قدراً من الاحترام المتبادل.

لقد طوّرت هذه اللجان على مدى عشرات السنين إجراءات عمل محددة تماماً، بالانتقال من الكراهية إلى التسامح، وفي النهاية إلى الاحترام. وتختلف الإجراءات من لجنة إلى لجنة ومن بلد إلى آخر، غير أن هناك أفكاراً رئيسة معينة تتكرر. وكبداية، فإن اللجان ليست لجاناً قانونية أو محاكم مختصة بجرائم الحرب: هي لاتسعى إلى تحديد كيفية إنزال العقاب، بل هي مخصصة بالأحرى لتكون شاهداً على ما حدث، بأقصى ما يمكن من الدقة والإدراك. ويقوم ممثلو اللجان -مبدئياً- بجمع معلومات وافرة. وتعقد جلسات علنية تتم فيها دعوة الضحايا لرواية قصصهم بأكثر كمية من التفاصيل التي يرغبونها وبأكثر ما يستطيعون تحمله. وبعدها يُدعى أولئك الذين ألحقوا الضرر بالضحايا أو بأقارب الضحايا (والذين ربما كانوا قد قتلوا) يدعون لتقديم مبررات عن أفعالهم. وفي أحسن الحالات يتجاوب من أوقعوا بالضحايا بشكل علني ويصرحون بندمهم على آثامهم ويقدمون اعتذاراتهم ويلتمسون المغفرة: سلسلة متعاقبة من أفعال الاعتراف، الندم، والمغفرة[20]. وفي بعض الحالات يتم بالفعل منح المغفرة من قبل الأطراف المفجوعة.

ويستمع أعضاء اللجان بعناية إلى محاضر الجلسات وهم يقدمون الدعم للضحايا ويشجعونهم على إعطاء تفاصيل عن رواياتهم. وكما أشارت مارثا مينا الباحثة في القانون، فإن الأمثلة التي تحتذى هي مداواة الجراح والرحمة وليست العدل واللامبالاة[21]. وتدعم اللجان أيضاً من أوقع بالضحايا إلى حد أن مشاركتهم تبدو متحمسة تماماً وصادقة. وتهدف اللجان، ولغايات معاصرة وتاريخية كذلك، إلى تسجيل الأحداث بالوثائق كاملة قدر الإمكان، وهي تقوم فعلياً في بعض الأحيان بإصدار توصيات حول ما يجب القيام به في قضية معينة. وبإمكانها على سبيل المثال، منح العفو أو إصدار قرار إلزامي بدفع تعويضات. غير أن مهمتها الكبرى هي إنجاز عملها بطريقة مناسبة ثم تقديم التوجيه بصدد الكيفية التي يمكن بها للمجتمع أن يحقق الصلح وأن يداوي الجراح ويتقدم دون أن ينسى الماضي أبداً، ولكن دون أن يكون منغمساً وغارقاً فيه. والهدف في بعض الحالات هو هدف سياسي بشكل علني وصريح ـ لتقوية النظام الجديد، ولدعم ديمقراطية ناشئة لكنها لا تزال هشة. وقد ثبت أحياناً، في الواقع، وجود إمكانية للمجتمع لكي يشفى، ولأشخاص وجماعات ممن كانوا على علاقة جفاء مع آخرين لكي يدفنوا خلافاتهم ويعملوا جنباً إلى جنب ـ في البداية يسامحون، ثم يحترمُ بعضهم بعضاً في النهاية.

إنه لأمر بالغ الأهمية أن نبحث عن أرضية مشتركة، في سياق التغلب على الكراهية، والخصومة، وأعباء التاريخ. وبالنسبة للأفراد الذين يعيشون في البلاد ذاتها، هناك احتمال بأنهم يمتلكون القدرة على أن يكونوا متحدين بفعل وجود تجارب مشتركة أو علاقات مودة أو طموحات مستقبلية. فأولئك الذين كانوا أعضاء في أطراف متحاربة في يوغسلافيا

السابقة، ربما يكتشفون ثانية محبة مشتركة للبلاد، لأصدقاء مشتركين، وحتى لأعداء مشتركين قدماء. وربما يتعلم سكان إيرلندا الشمالية وجمهورية إيرلندا أن يتجاوزوا الخلافات في التاريخ والدين وبدلاً من ذلك عليهم أن يشجعوا ويدعموا تقليداً ثقافياً مشتركاً، ولغة مشتركة ونسباً مشتركاً. وكان قد جرى عقد صلح بين الخصمين الرئيسين اللذين ظلا على خلاف على مدى طويل، دون أدامز وتوماس جيفرسون، عندما تقدما في السن وذلك عن طريق الاعتراف بالصراعات المشتركة التي كانا قد انهمكا فيها عندما كانت المستعمرات تسعى لتحقيق الاستقلال، وعن طريق التباهي بالجمهورية التي كان كلاهما مفيداً في تأسيسها. ولقد أقام دانييل بارينبويم وإدوار سعيد صداقة بينهما من خلال حبهما المتبادل للموسيقى وطموحاتهما لتحقيق الصلح بين الشعوب الساميّة.

لابد لاحترام الآخرين من أن يخترق حياة المرء. فمعظمنا يقضي معظم ساعات استيقاظنا في العمل. ونحن نتحول في صورتنا الأخيرة إلى نوع العقل الذي يجب أن يظهره الأفراد وهم يسعون وراء أعمالهم ويؤدون أدوارهم كمواطنين.